الفصل السادس

طالب الدكتوراه بجامعة باريس

* غرق فى الحياة الباريسية وسقط فى درجة الدكتوراه فى القانون .
* عندما تشاءم من المصباح المكسور .
* استقبله أهله بعد العودة قائلين : « ياخيبتنا ياخيبتنا » .
* كتب عودة الروح باللغة الفرنسية ، وكاد يلطشها منه كاتب فرنسى .
* كان يريد أن يصبح دكتورًا فى الأدب لا فى القانون .

* * *

obeikandl.com

يوم الرحيل

تحدث عن رحلته الأولى إلى باريس فى كتاب « رحلة بين عصرين » فقال :

– ذات صيف فى مطلع العشرينات من هذا القرن ، فى شهر يوليه ، فيما أذكر – يقصد فى عام ١٩٢٥ وضعت قدمى على سلم باخرة تذهب بى إلى فرنسا . لم تكن الطائرات قد استخدمت فى السفر . ولم أكن قد ركبت البحر قط . كانت الباخرة تسمى « الجنرال متزنجر » وهو جنرال فرنسى لم يشترك فى الحرب العالمية الأولى لأنه ولد عام ١٨٤٢ ومات ١٩١٤ وربما حضرها ومات عند أول طلقة . وقد علمت أنهم أعدموها أو فكوا أجزاءها بعد تلك الرحلة .

وفى « سجن العمر » يصف يوم الرحيل ، ويقول :

– فى يوم السفر عانقت والدتى وجدتى ودموعها تنهمر . وذهبت مع والدى إلى الميناء ، وصعدت إلى الباخرة ، ووقفت على ظهرها أتطلع إلى والدى على الرصيف ، وهو واقف تحت شمسيته البيضاء ، يلوح لى بيده ثم بمنديله ، والباخرة تتحرك . كان منظره منظر الأب الرزين وهو يكتم شعوره تحت قناع وداع هادئ ، مما أسال دمعتى على الرغم منى . وابتعدت مصر ، واتجهت أنا نحو المصير المجهول .

ويستكمل حديثه ، ويقول :

– ركبت بالبداهة فى الدرجة الثانية ، لأنه لم يكن بها درجة ثالثة ،

وكانت الأيام تبدو طويلة رتيبة مملة على ظهر السفينة . وأمامنا خمسة أيام طوال لاندرى كيف نقضيها . وعلمنى أحد رفاق السفر لعبة « الدومينو » ، لقتل الوقت .

وفى باريس أقام فى الحى اللاتينى فى فندق « فرنسا الشرق » فى حجرة إيجارها الشهرى أربعمائة فرانك أى ما يوازى أربعة جنيهات فى تلك الأيام بينما كان ما يصله من أهله شهريا عشرة جنيهات .

الفن والقانون

وهناك التحق بكلية الحقوق بجامعة باريس ، للحصول على درجة الدكتوراه فى القانون .

وبالرغم من أن والده رجل القضاء قد أوفده إلى باريس ليبعده عن الجو المسرحى فى مصر ، ليدرس القانون ، فإن الجوّ الفنى الأوربى ، جعله يغرق فيه إلى الأذنين ، فدعم فى نفسه الميل الطبيعى للفن ، وفتح أمامه طرقًا فنيّةً جديدة ، لم تكن مألوفة فى مصر ، فأخذ يقرأ كل ما يتعلق بفنون الأدب والمسرح والموسيقى والفن التشكيلى ، ويتردد على المسارح والمتاحف وحفلات الكونسيرات على نحو ما جاء فى كتابه « عصفور من الشرق » و « زهرة العمر » .

روى لى صديقه وزميل دراسته فى باريس الدكتور مصطفى القللى عميد كلية الحقوق السابق بعض ذكرياته معه فى هذه الفترة ، فقال :

– إننى كنت أقيم حينذاك أنا وبعض الزملاء المصريين فى إحدى ضواحى باريس فى شبه عزلة عن المدينة ، لأننا كنا لانذهب إليها إلا نادرا لمشاهدة ما

يجرى فيها . فكان توفيق الحكيم الذى كان يقيم فيها ، يأتى لزيارتنا فى نهاية كل أسبوع ، ويوفر علينا عناء الذهاب إلى المدينة ، لأنه كان يقص علينا أخبارها ، خصوصا أخبار المسارح والمعارض والموسيقى ، التى كان يقبل عليها بنهم شديد .

وبرغم ما اشتهر عنه من بخل شديد ، فإنه كان ينفق بسخاء على شراء الكتب وحضور حفلات التمثيل والموسيقى .

ذكر لى بعض أصدقائنا فى باريس أيضا ، أنه بلغ من شدة شغفة بالموسيقى السيمفونية ، أنه كان يتردد على بعض النوادى التى كان يوجد فيها جهاز الاسطوانات الأوتوماتيكى المعروف باسم « جوك بوكس » الذى تستمع فيه إلى أى اسطوانه تطلبها بقطعة من ذات المارك ، فكان يضحى بآخر مارك فى جيبه ليستمع إلى موسيقى بيتهوفن وموزار مرات ومرات .

إذن فقد اختار طريق الأدب والفن والفكر ، الذى نأى به عن طريق القانون . لكنه مضى على كره منه فى الدراسة والتحضير لرسالة الدكتوراه ثلاث سنوات دون أن يحرز أى تقدم .

كتب إلى صديقه الفرنسى أندريه فى إحدى رسائله فى كتاب « زهرة العمر » يقول :

– إنى الآن جادّ فى الاستعداد للامتحان فى أول مارس ، وهى آخر فرصة لى ، فإذا ضاعت فإنى أقطع الأمل نهائيا فى نوال الدكتوراه ، ذلك أن البرنامج بعد ذلك يتغير ، وبهذا يذهب هباء كل ما قدمت فيما مضى ، ثم إنى لن أستطيع التقدم إلا مرة أخرى بعد مرور عام على الأقل ، بالبرنامج الجديد . فأول مارس كما ترى هو التاريخ الفاصل فى أمر مستقبلى الدراسى للقانون ، وفشلى فيه سوف يكون صدمة كافية أن تقصينى إلى الأبد عن طريق الحقوق . فهذا الامتحان هو

حدث هام فى حياتى ، ولا أريد أن أتهاون فيه حتى لاتلق التبعة على وعلى إرادتى ، فأنا أجهد نفسى فوق الطاقة لأضع التبعة على رأس القدر ، فاذا أراد هو أن يصدمنى ليخرجنى من سجن القانون إلى فضاء – أى فضاء – فتلك إذن إرادته هو لا إرادتى .

وفى رسالة أخرى ، كتب يقول :

– لم يعد لأيامى مذاق ، فهى كالماء القراح ، أجرعه على غير ظمأ ، والمستقبل أمامى محوط بالضباب ، يخيل لى أنى هويت قبل الأوان ، كالثمرة التى تسقط من الفرع قبل النضوج .

ثم يعلق على برقية تلقاها من أبيه قبل موعد امتحان الدكتوراه ، ويقول :

– أمامى برقية من أبى المسكين تقول : « أبرق لنا فى حالة نجاحك » .

وكلمة النجاح غريبة على أذنى الآن . أأنا أستطيع أن أنجح فى شىء ؟ إن اسمى كما تعلم مقيد منذ زمن بجدول المحامين فى بلادى ، إنى فى عرف القانون محام .

لقد كانت فجيعة لأبى المسكين أيام أن كان يسمع ويرى أنى أنسى صفتى كمحام وأنحشر فى زمرة الممثلين ، أولئك الذين يسمونهم عندنا « المشخصاتية »

ولقد خشى والدى المتفجع أن يجرفنى التيار عن حياة القضاء التى عاشها بشرف ، فأشار عليه المخلصون أن يقصينى عن مصر فترة من الزمان . فأرسلنى كما ترى إلى هنا لعلى أسلو الفن ، وأنصرف إلى ما يتمناه من حياة قانونية محترمة . فماذا أنا قائل له الآن ؟ وبماذا أرد على برقيته ؟

رأيك دائما ذو قيمة كبرى عندى ، فهو صادر عن منطق طالما أنكر سلطان الخيال . أما أنا فقد أنكرته ، أو على الأقل سائر فى طريق إنكاره والإيمان

بالواقع . الدليل على ذلك . أنى أرغم نفسى الآن على الاستعداد للتقدم لامتحان الدكتوراه فى القانون ، إرضاء لأهلى ، لاشىء يعوقنى عن النجاح غير طبيعتى التى خلقت للضياع فى الفضاء ، لا للوقوع فى قيود الدكتوراه وحدود المعارف الجامعية . نفسى قد خلقت لتقرأ ماتريد وقتما تريد ، لتحيط علما بكل شىء وتسعى إلى تأمل كل شىء ، وتستبقى فى الذاكرة ما تشاء وتنسى ما تشاء . أما تتبع دراسة منتظمة لجزء معين بالذات من العلوم يستذكر استذاكارا ليستفرغ بعد ذلك استفراغا بين يدى ممتحنين ومحلفين .. هنا كل المشكل ياصديق أندريه .

السقوط فى الدكتوراه

وكان السقوط فى درجة الدكتوراه ..

كتب إلى صديقه أندريه ، يقول : .

– لقد لفظ القدر كلمته . إنه لايريد لى طريق القانون ، لقد رسبت فى ثلاث درجات ، ولم ترد لجنة المحلفين جبر النقص ، بينما وافقت لجنة أخرى على جبر أربع درجات لاحد أعضاء البعثة .. من هذا ترى أن القدر لم يرد أن يمد يده كما يمدّها إلى غيرى ، لماذا ؟ إياك أن تفهم أنى تهاونت فى الدرس ، لقد كانت إجابتى مرضية جدًّا فى علم تاريخ المبادئ والمذاهب الاقتصادية ، من آراء أرسطو حتى كارل ماركس . وكذلك فى علم الاقتصاد السياسى ، وفى علم التشريع الصناعى ، ولم أهبط إلى حد الرسوب إلا فى علم واحد ، هو علم

« المالية » ولعل هذا يفسر لك ارتباك ماليتى إنه علم إجراءات وأرقام لاتستقر فى ذاكرتى .

آه للذاكرة يا أندريه .. مادامت الذاكرة هى المعول عليها إلى حد كبير فى الامتحان فلا أمل لى . أما المطالعة فى ذاتها فما أيسرها وما ألذها عندى . إنى أطالع فى اليوم ، ما لا يقل عادة عن مائة صفحة فى مختلف ألوان المعرفة ومن أدب وفنون وفلسفة وتاريخ إلى علوم رياضية وروحانية مائة صفحة فى اليوم أى ثلاثة آلاف صفحة فى الشهر . بينما المقرر كله لامتحان الدكتوراه لايتجاوز ثلاثة آلاف صفحة فى العام كله .. لو تعلم أنى قرأت مقرر الدكتوراه للقانون ، وهو عن « سلطة الكنيسة والدولة » ونظام العبادات منذ القرن الرابع عشر وعصبة الأمم والمبادئ البارزة للقانون الدولى وأهم اتجاهات قضاء مجلس الدولة والدساتير المكتوبة ، قرأت ذلك كله دون أن أتقدم فيه إلى امتحان ، قرأته لمجرد القراءة ، وما قراءة مقرر عندى إلى جانب قراءاتى الأخرى ؟

ألم أخبرك أنى تتبعت كثيرا من دروس السوربون ، بغير غاية ، إلا تتبع آثار الثقافة التى تعنينى . إن التحصيل فى ذاته للثقافة والتكوين هو لذتى الكبرى الآن . إنما الذى يخيفنى هو الامتحان .

لقد تحقق لدى اليوم ، أنى لا أصلح بطبيعتى للتقدم إلى أى امتحان ذلك أن الامتحان يريد لى عكس ما أريد من القراءة . إنى أقرأ لأهضم ماقرأت ، أى أحلل مواد قراءاتى إلى عناصر تنساب فى كيانى الواعى وغير الواعى ، أما الامتحان فيريد منى أن أحتفظ له بهذه المواد صلبة مغروزة ، إنى أشعر وأنا أقرأ حتى مقرر الدكتوراه فى القانون ، أن مواده قد تفككت واختلطت بمواد أخرى لقراءات أخرى ، لا علاقة لها بالقانون ، كما تختلط فى المعدة المواد الغذائية

بعضها ببعض ، وإذا الناتج من هذه المواد عصير ثقافى ، يسرى فى دمى المعنوى ، فأحس كأن وزنى الفكرى قد ازداد ، وكأن قدرتى على احتمال التأمل المثمر قد نمت . أما المواد الغذائية فى ذاتها فقد هضمت ، أى نسيت . الامتحان يريد منى أن أوقف عملية الهضم ، حتى يتحقق الممتحن من وجود المواد الصلبة مغروزة داخل المعدة الدهنية .

وفوق هذا تدخل عامل التفاؤل والتشاؤم لدى طالب الدكتوراه الشرق فروى تلك الحادثة التى وقعت له ليلة الامتحان ، وقال :

– كان ذلك آخر ليلة استعد فيها للامتحان . لقد سهرت حتى الرابعة صباحًا ، تحت مصباح المكتب الصغير ، حتى أتممت مراجعتى الأخيرة . فطويت الأوراق والكتب ، ونهضت للنوم ، كى استيقظ نشيطًا للامتحان . وكنت منشرحًا متفائلا مفعمًا بالأمل لامتلاكى ناصية المقرر ، وإذا فجأة تصطدم يدى بالمصباح فيقع مكسورًا على أرض الحجرة ، تاركًا كل شىء فى الظلام ..

عند ذلك دب التشاؤم فى نفسى ، وحدثتنى نفسى بسوء الختام فى هذه اللحظة فقط كان فشلى قد تقرر ، كما تقرر مصير « مكبث » ملكًا مجرما فى اللحظة التى آمن فيها بنبوءة الساحرات .

سواء كانت تلك إرادة القدر أو إرادتى ، فقد فشلت يا « أندريه » فأرث لى ! ؟

عاد يخفى حنين

أمضى تلك السنوات فى باريس .. ثم عاد دون الحصول على الدكتوراه فى

القانون على ظهر الباخرة « راولينذى » فى يوم ٢٥ مايو ، ووصل إلى الاسكندرية بعد عشرة أيام فى يوم ٥ يونيه ١٩٢٨ .

ويصف ما حدث له بعد ذلك ، فيقول :

– وعدت إلى بلادى ، عدت بالحقيبة ذاتها التى قد حملتها معى ، وكان بها بدلتان وأربع فانيلات وأربعة قمصان ، وستة مناديل .. عدت بها جميعا لم ينقص منها شىء . كما عدت بصناديق خشبية مملوءة بما جمعت من كتب على مدى تلك الأعوام . كل ذلك عدت به ، ماعدا شيئًا واحدًا لم أعد به ، وهو ماذهبت للحصول عليه وهو « الدكتوراه فى القانون » فإن بطء الفهم عندى وواعيتى الضعيفة ، بالإضافة إلى أعباء الجهاد الثقافى الشامل الذى ألقيت بنفسى كلها فى لجته ، مع الفهم الفكرى الذى استولى على أمام موائد الحضارة الكبرى .. كل هذا لم يترك لمثلى القوة ولا القدرة على حمل عبء آخر .

ويصور وقع ذلك على نفسه وعلى أسرته ، فيقول :

– عدت فاستقبلنى أهلى كما يستقبل الخائب الفاشل . وتصادف أن سمعوا أصوات فرح على مقربة من منزلنا . فلما سألوا عن الخبر . قيل إن سرادقًا أقيم وأكواب شربات تقدم ابتهاجا بجار زميل لى عاد من الخارج ناجحًا فالحًا ظافرًا بشهادة الدكتوراه ، فازداد مركزى سوءًا . ورأيت الهم والغمّ والأسى فى عيون أهلى . وسمعتهم من حولى يتهامسون : ياخيبتنا .. يا خيبتنا .

دكتوراه فى الأدب

لكنه لم يمكث فى مصر سوى شهر واحد . ثم عاد إلى باريس بعد أن تلقى

برقية عاجلة بالعودة إلى هناك .

وقد أوضح فى كتاب « وثائق من كواليس الأدباء » السبب فى هذا الاستدعاء ، وهو أنه كان قد بدأ فى كتابة رواية «عودة الروح » باللغة الفرنسية فى العام السابق ، وعهد إلى صديق فرنسى بمشاركته فى هذا العمل فتلقى تلك البرقية من صديق آخر من المشجعين له ، بالعودة لسحب روايته ، حتى لايسطو عليها الصديق الفرنسى وينسبها إلى نفسه . كما حدث ذلك من قبل مع أحد زملاء الدكتور طه حسين فى جامعة السوربون ، وهو أحمد ضيف الذى أراد أن يكتب رواية بالفرنسية بعنوان « منصور » بالاشتراك مع كاتب فرنسى اسمه « فرانسوا بونجان » فزعم أنه هو المؤلف الأصلى ، وأن أحمد ضيف ليس أكثر من معاون ثانوى أمده بالمعلومات . وهذا ما كاد يحدث للحكيم فى رواية « عودة الروح » فعاد وسحب الرواية من الشريك الفرنسى ، وطرحها جانبًا ، وكتب الرواية من جديد باللغة العربية التى نشرت بها بعد ذلك .

لكنه كان قد قرر أمرًا بعد فشله فى الحصول على الدكتوراه فى القانون ، وذلك بأن صارح أباه بأنه يريد تغيير خط السير الذى أراده له ، وأن يترك القانون ويتخصص فى الأدب .

لقد أرسله والده إلى باريس عام ١٩٢٥ تحقيقا لاقتراح صديقه أحمد لطفى السيد ، مدير دار الكتب عامئذ ليحصل على الدكتوراه فى القانون ، ويعين بعد عودته أستاذا فى الجامعة التى كان مزمعا إنشاؤها بعد ذلك .

والآن أصبح لطفى السيد بك يشغل منصب وزير المعارف ، ويستطيع أن يحقق له حلما من أحلام عمره . بتغيير اتجاهه إلى الأدب ، فكتب رسالة إلى والده يطلب فيها أن يقابل صديقه وزير المعارف ، لاستشارته فى أمر ترشيحه

لبعثة أدبية تتخصص فى التأليف الأدبى .

وقد تلقى رسالة من والده بتاريخ ١٣ أكتوبر ١٩٢٨ ردًّا على تلك الرسالة يخبره فيها بما تم بعد لقائه مع صديقه معالى لطفى السيد بك ، قال فيه

– قابلت معاليه ، وأخبرته بما جاء فى خطابك عن تعلقك بالنبوغ فى الأدب وإفادة البلاد بالتآليف الأدبية ، وبأن الحكومة أو وزارة المعارف تقترح إيفاد مرشح لهذا الغرض . فكان جواب معاليه أن لجنة البعثات لا تبحث فى مثل هذا الاقتراح مطلقًا ؛ لأن موضوعه عام غير محدود .. ولأن الأدب إنما هو ميل خاص فى شخص ليستفيد منه هو نفسه لأنه هو يجيده ، وليس من الفنون التى تدخل فيها الحكومة من وجهة تخصيص شخص أو أشخاص للتبحر والنبوغ ، لأنه لا يمكن لها معرفة حقيقة المواهب الأدبية لدى الأشخاص ، حتى ترسل منهم على نفقتها من يتخصص فى الأدب .

وأضاف الوالد :

– والرأى الذى وافق عليه أخيرا هو توظفك بالمحكمة المختلطة ، فإنها من جهة تضمن مستقبلك . ومن جهة أخرى تساعدك على الاستمرار فى درس الأدب بما فيها من قلة العمل .

وقال إن بلادنا وإن كانت محتاجة حقيقة إلى الأدب والتأليف إلى حدٍّ بعيد ، لا تدرك هذه التضحية منك الآن وأنت فى مقتبل الشباب على حين يمكنك إفادتها بمواهبك بدون أن تضحى بمستقبلك وتلقى به فى هوة سحيقة .

ثم طالبه بالتعجيل فى العودة إلى مصر فى أول شهر نوفمبر لتسلم الوظيفة قبل أن تفلت منه ، خصوصا أن لطفى السيد وبعض عليه القوم يبذلون المساعى فى سبيل ذلك .

التهديد بقطع المصروفات

وحتى لا يتأخر فى العودة ، أخبره بأنه لن يستطيع أن يمدّه بالمصروفات بعد ذلك .

وبرغم أن الوالد . قد لوّح له بقطع المصروفات عنه . فإنه كان يريد البقاء فى باريس بضعة شهور أخرى لإنجاز عمله الأدبى ، فكتب إليه ردًّا بهذا المعنى قال فيه ، موجهًا الحديث إلى والديه .

– مهما كانت ثقتكما بى ، فإنى أخشى أن المظاهر المادية فى مصر تجعلكما تندمان على رفضِ المادة فى سبيل غاية تسمونها « خيالية » إنى أطلب منكما أكثر مما تحتمله الطبيعة الأبوية . وأتخيلكما أقوى من الواقع . الواقع فى أب و أم يحبان ولدهما . وكأنى أريدكما أبطالا .. أبطال قصص قديرين على فصل العاطفة عن الواجب .

أما جميع أصدقائى المخلصين المطلعين على حقيقة أمرى ومافعلت ، فيعجبون بى كل الإعجاب ويحضوننى على الاستمرار ، حتى أظفر بشىء وأعود إلى مصر فائزا .

وبعضهم ماتردد أن قال : « إن أعوزتك النقود فأشتغل فى باريس شغلة (ولو حقيرة) وأمض فى سبيلك ، فلابد واصل بإذن الله » .

ومع ذلك فليس هذا يقلقنى ، فمدة إقامتى فى باريس لإتمام عملى برغم المصاعب ، لن تطول أكثر من بضعة شهور ، إنما ما يشغل بالى هو وظيفة النيابة المختلطة ، وندم حضرتكما العميق المحتمل فيما لو أضعتها من يدى ،

ولهذا ضحى بهذا الهدف ، الذى كان سيجعله خليقا بأن ينال الدكتوراه فى الأدب بدلا من القانون ، وعجل بالعودة إلى الوطن فى أول نوفمبر ١٩٢٨ .

كان يطلب العلم لذاته وليس فى سبيل الشهادة . يحدثنا بإعجاب عن معهد أقيم لهذا الغرض من أجل الاستزادة من المعرفة ، عندما هبط باريس لأول مرة وأقام فى فندق فرنسا الشرق فى الحى اللاتينى ، فيقول :

– أستلفت نظرى فى مواجهتى مبنى له مهابة ، فسألت الخادم عنه فقالت : إنه « الكوليج دى فرانس » ولم تزد . ولم أفهم منها المقصود ، فلجأت إلى جامعتى المتنقلة « معجم لاروس » وكشفت عن كلمة « كوليج » فعثرت على ضالتى فى هذه السطور : « كوليج دى فرانس » معهد أسسه فى باريس فرانسوا الأول عام ١٥٣٠ خارج نطاق الجامعة . بناء على مشورة جيوم بوديه ، والدراسة فى هذا المعهد تشغل كل مجالات المعرفة الإنسانية ، والمحاضرات داخل هذا المعهد مفتوحة للجميع ، ولا يعقد فيه أى امتحان ، فهى دراسة تكميلية تطلب لذاتها .

وجيوم بوديه فيلسوف فرنسى (١٤٦٧ – ١٥٤٠) واحد من أوائل المتخصصين فى عصره فى الثقافة الإغريقية .

ولعل الحكيم أفاد من هذا المعهد ، فى سبيل الاستزادة من المعرفة فى ذاتها ، لأنه يحدثنا عنه ، فيقول :

– غرقت فى التفكير ، يالله العجب بل يالله الرقىّ رقى النفس والعقل أن يطلب الإنسان المعرفة لذاتها ، للسموّ بها ، لابغية نجاح فى امتحان أو حصول على شهادة أو وصول إلى وظيفة .

* * *